1- إنَّ رواية نهج البلاغة وصفت الشخص المبعوض بالبدن ولم تصفه بالعبد فهو كسائر الأبدان والأجساد المادية الخالية من الصفة الإنسانية الحقيقية وهي العبودية □ تعالى (إِنَّ هُمْ إِلَّا رَجُلٌ كَالَّذِينَ نَزَعْنَا مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ آلَهُمْ هُمْ يَلُوكَ وَإِنَّهُمْ عَلَى بَاطِنٍ لَا مُبَدِّلَ لَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (الفرقان/44) فهو لا يستحق أن يوصف بالعبودية التي هي أسمى صفة للإنسان، وبها كرم □ تعالى نبيه المصطفى (صلى □ عليه وآله) حين أمر بذكره في تشهد تسليم الصلاة بالعبودية ثم الرسالة (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) أمّا نصّ الأمالي فقد وصف الشخص المبعوض بالعبد وهو لا يستحقه.

2- إن نص نهج البلاغة استعمل لطيب الباطن والظاهر (مَنّ) وهي تستعمل للعاقل بينما استعمل (ما) للمبعوض وهي تُستعمل لغير العاقل فيناسبه لفظ البدن غير العاقل لا العبد الذي يحمل تمام العقل.

3- إن نص نهج البلاغة قدّم المحبوب بالذكر في كلا الفقرتين (حب العبد وحب العمل) وهو الأليق، بينما قدّم النص الثاني الشخص وإن كان مبعوضاً.

وعلى أي حال فإن معنى كلامه (عليه السلام) باختصار:

إن ما يصدر من الإنسان من تصرفات وأفعال ومواقف إنما يعكس حقيقة هذا الشخص وباطنه وذاته، قال (عليه السلام) في كلمة أخرى (ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه) ([4]) وكما قيل في المثل المعروف (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

وقد أعطى (عليه السلام) في ذيل كلامه مثلاً لهذه المعادلة ووسيلة الوصول إلى الباطن الطيب، فإن العمل كالنبات فيه طيب حلو وفيه خبيث مر، فإذا كان الماء الذي يسقي الزرع والأرض طيباً كان الزرع طيباً حلواً، وإلا كان مرّاً خبيثاً، وهكذا النفوس إذا سُقيت من معينٍ نقي للمعرفة والعلم والأخلاق كانت صالحة طيبة، وإلا فستكون خبيثة.

وبالعودة إلى الحديث النبوي الشريف، فإنه تستفاد منه قاعدة لتمييز الإنسان الصالح من الفاسد، لأنّ الأول لا يترشح منه إلاّ فعل الخير بعكس الثاني، فيُقيّم الإنسان وتعرف حقيقته من خلال الحكم على أفعاله.

لكن -وكما قيل- فإنّ لكل قاعدة شواذاً، فإنّ الإنسان الصالح -عدا المعصوم (عليه السلام)- قد يصدر منه فعل سيء يبغضه □ تعالى إما لغفلة، أو لضعف في المناعة والعصمة والإرادة، أو لغلبة الهوى والشهوة وتزيين الشيطان أو لسوء تقدير، أو لتأثر بأقران سيئين، أو لضعف أمام تهديدات وإغراءات ونحوها من أسباب السقوط في المعاصي.

وإن الشخص الفاسد قد يقوم بفعل محبوب □ تعالى كمساعدة محتاج أو رعاية يتيم أو قضاء حاجة إنسان آخر ونحوها، لتأثره بجو إنساني وعاطفي عام، أو لبقية حياة في ضميره أو بتأثير إنسان صالح يحبّه وهكذا.

وبهذا نحلّ الإشكال الذي قيل على سياق الحديث، وحاصله: إنّ الحديث النبوي الشريف يناهض الفقرة السابقة عليه وهو ينقض المطابقة بين الظاهر والباطن التي ذكرها أمير المؤمنين (عليه السلام):

وملخص الجواب: إنَّ هذا الإشكال مبني على كون الحديث النبوي شاهداً على ما أورده من القاعدة، فيُجاب الإشكال بأنَّ الحديث ذكر للإشارة إلى الاستثناء من القاعدة، وليس استدلالاً على نفس القاعدة. وقيل في توجيهه شيء آخر ذكره العلامة السيّد حبيب الله الخوئي شارح نهج البلاغة، قال (قدس سره): ((وإنما الإشكال في ارتباط هذا الكلام لسابقه و في استشهاد الامام عليه السلام به مع أنَّه لا مناسبة بينهما ظاهراً، و ليس للاستشهاد به وجه ظاهر، بل منافاته لما مرَّ أظهر من المناسبة كما هو غير خفي، إذ لازم محبَّة اللّٰه للعبد كون العبد طيِّباً، و لازم بغضه لعمله كون العمل خبيثاً فلم يكن الظاهر موافقاً للباطن، فينافي قوله عليه السلام: فما خبث ظاهره خبث باطنه.

وكذلك مقتضى بغض اللّٰه سبحانه لبدن الكافر كونه خبيثاً، و حبّه لعمله كون عمله طيِّباً ففيه أيضاً مخالفة الظاهر للباطن، فينافي قوله: فما طاب ظاهره طاب باطنه.

والذي سنح لي في وجه الارتباط و حلَّ الإشكال بعد التّروي و صرف الهمّة إلى حلّه أيّاماً و الاستمداد من جدّي أمير المؤمنين عليه و آله سلام اللّٰه ربّ العالمين هو أنَّه لمّا ذكر أنَّ ما هو طيِّب الظاهر طيِّب الباطن و ما هو خبيث الظاهر خبيث الباطن، عقّب به هذا الحديث النبوي صلّى اللّٰه عليه و آله و سلّم تنبيهاً و إيقاظاً للسامعين بأنَّ العبد قد يكون نفسه محبوباً و عمله مبعوضاً، و قد يكون بالعكس كما أفصح عنه الرّسول المصّدق.

فاللّازم له إذا كان محبوب الذّات للّٰه سبحانه و مبعوض العمل أن يجدّ في تحبيب عمله إليه تعالى حتّى يوافق نفسه عمله في المحبوبة، و إذا كان محبوب العمل مبعوض البدن أي الذّات أن يجدّ في تحبيب ذاته إليه كي يوافق عمله نفسه.

والغرض بذلك الحثّ على تطبيق الظاهر للباطن في الأوّل و تطبيق الباطن للظاهر في الثّاني في المحبوبة حتّى يكونا طيِّبين، و يفاز إلى الذّعيم الدّائم و الفوز الأبدي، و لا يعكس حتّى يكونا خبيثين مبعوضين له تعالى، فيقع في العذاب الأليم و الخزي العظيم، و قد زلّت في هذا المقام أقدام الشّراح و المحشّين). ([5])

أقول: هذا المعنى صحيح في نفسه، وإن كان يحتاج إلى مقدمات لاستظهاره من الحديث الشريف و حل الإشكال به.

ونذكر هنا وجوهاً أخرى بحسب فهمنا القاصر لسبب إيراد أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا الحديث في ذيل كلامه المذكور وهي كالتالي والثمرات المستفادة من هذا الحديث الشريف، ومنها:

1- أراد (عليه السلام) أن يمنع من اعتماد الشخص على هذه القاعدة فيعتقد أنَّه ما دام مؤمناً فإنه لا يصدر منه إلاّ الفعل الحسن فيأخذه العجب ويغفل عن مراقبة نفسه ولا يحسب لاحتمال ضعف النفس وغواية الشيطان، فنبهه الإمام إلى إمكان الوقوع في الفعل المبعوض مهما كانت درجة إيمانه - عدا المعصومين (عليه السلام) - فلا يركن إلى نفسه.

وكذا زرع الأمل في نفوس السيئين بأنّهم مهما كانت درجة انحطاطهم فإنّهم يمكن أن يصدر منهم الفعل

الحسن فلا يقنطوا ولا يياسوا من رحمة الله تعالى ولطفه وعليهم أن يسعوا للقيام بالفعل الحسن وإن كانوا فاسقين، قال تعالى (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ) (الزمر/53).

2- إن هذا التطابق بين الظاهر والباطن لابد أن يتحقق ويكون تاماً لأنّه غير قابل للتفكيك لأن الظاهر صورة للباطن، كالمطابقة بين الصورة في المرأة وصاحبها، حيث لا يتصور عدم المطابقة بينهما، فإذا حصل شيء على خلاف هذه القاعدة، فإنه يُعالج بما يعيد فاعله إلى هذه القاعدة.

فالمؤمن إذا صدر منه فعل مبغوض إلى الله تعالى فتح له باب التوبة والاستغفار وطلب العفو حتى يمحو ذلك الخطأ ويعود إلى المسار الصحيح، وقد يحتاج الأمر إلى أن يُبتلى ويعاقب بمرض أو مصيبة أو همٍّ أو خسارة وغيرها مما ذُكر في كفارات الذنوب، قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مَرْنٌ مَّسِيَّةً فَإِيمَانَ كَسَبْتُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى/30).

والكافر الذي ليس له في الآخرة من خلاق، إذا صدر منه فعل يخبّئه الله تعالى أعطى جزاءه في الدنيا مما يخبّئه ويرغب فيه ويعمل من أجله لكي لا يبقى له استحقاق عند الله تعالى ويعود التطابق بين الظاهر والباطن.

لأنّ الحب والبغض بالنسبة إلى الله تعالى ليس بالمعنى المعروف عندنا نحن البشر لتنزهه سبحانه عن ذلك، وإنما يعني آثارهما من الثواب والعقاب وهذا معنى صحيح أكدته روايات كثيرة.

3- إن ذكر الحديث النبوي الشريف للمنع من الحكم على شخص ما بأنّه صالح أو غيره، ومحبوب عند الله تعالى أو مبغوض من فعل واحد أو فعلين بالاستناد إلى هذه القاعدة، بأن يقال: إنّه لو كان صالحاً لما صدر منه الفعل السيئ، ولو كان مبغوضاً عند الله لما صدر منه الفعل المحبوب، فأتى (عليه السلام) بالحديث النبوي ليفيد أنّّه قد يصدر منه الفعل السيئ وهو محبوب عند الله تعالى، وقد يقوم بالفعل المحبوب وهو مبغوض عند الله تعالى.

نعم يمكن الحكم عليه إذا تحوّلت أفعاله إلى سيرة مستمرة وغالبة عليه، فإنها تكشف عن ملكة راسخة بهذا الاتجاه أو ذاك، وهذا ما ذكره الفقهاء في معنى العدالة من انها ملكة نفسية راسخة تُثمر استقامة على جادة الشريعة.

4- إنّ العبد مهما تظاهر على خلاف باطنه فإنه سيعود إليه وتتكشف حقيقته وتتحقق المطابقة بين الظاهر والباطن، فقد يصدر من الشخص السيئ فعل حسن بتصنع ورياء وخداع، ويصدر من الإنسان الصالح فعل سيئ، لكن كل واحد منهما لابد أن يعود في النهاية والخاتمة إلى ما يطابق باطنه مهما طال الزمن، قال تعالى (قُلْ كُلُّكُمْ لِيَعْمَلْ لِنَفْسِهِ) (الإسراء/84).

والتاريخ حافل بأسماء أشخاص كانت حياتهم مملوءة بالفسق والابتعاد عن الله تعالى لكنّهم خُتم لهم بالخير لأنّ أصلهم ومعدنهم كان كذلك كبشر الحافي والحر الرياحي مثلاً، ويوجد أمثلة كثيرة للعكس من ذلك كإبليس اللعين الذي كان مع الملائكة وعبد الله تعالى ستة آلاف سنة ثمّ خُتم له بالشفاء، وهذا لا

وهذا معنى صحيح وموافق للروايات التي مضمونها: إذا أذنب العبد صارت في قلبه نكتة سوداء، فإذا لم يتب وأذنب ثانياً صارت في قلبه نكتة ثانية وهكذا حتى يسود القلب ويموت فلا يرجى منه الخير والعياذ بالله تعالى.

([1]) حديث سماحة المرجع الديني سماحة الشيخ محمد اليعقوبي في بحثه الشريف يوم الأحد 23 صفر 1434 المصادف 6/1/2013.

([2]) نهج البلاغة، الخطبة (154) في فضائل أهل البيت (عليهم السلام)، أوّلها ((وناظر قلب اللبيب)).

([3]) أمالي الطوسي: 616، الجزء الرابع عشر في أخبار إبراهيم الأحمري.

([4]) نهج البلاغة، قصار الكلمات، رقم 36.

([5]) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: 9/248.